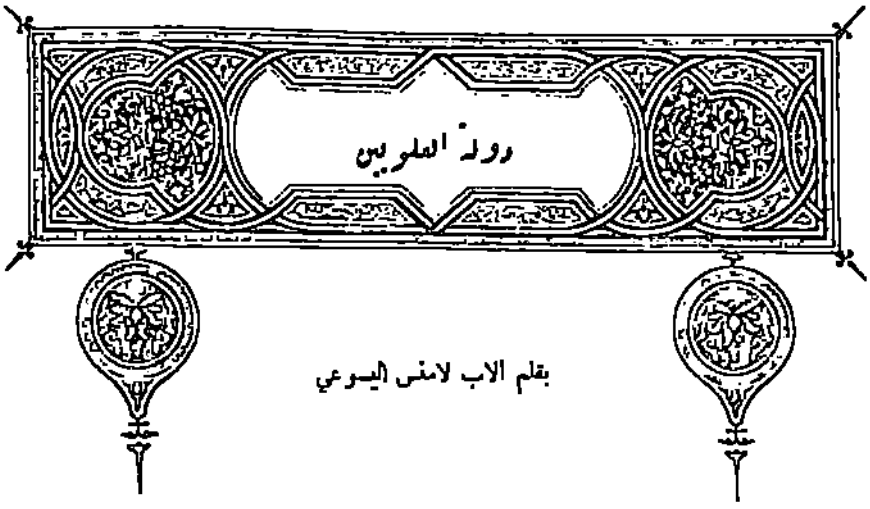

بقلم الاب لامنس اليسوعي

لا نخال احداً ينسبنا الى المبالغة اذا قلنا ان كثيراً من اللبنانيين والسوريين يعرفون بلاد اميركة واوسترالية اكثر مما يعرفون بعض مقاطعات من بلادهم . وكم من اللبنانيين لا يلمّون ، او يلمّون بطريقة سطحية ، بتاريخ الدولة التي تحدّ لبنانهم من الشمال ! وكم منهم يعرفون حالتها الحاضرة بالتفصيل ! ليس من الصعب ان نعدّ على الاصابع الذين زاروا تلك البلاد ، وشاهدوا كل ما امتازت به من كنوز الآثار الرائعة ، ومظاهر التقدّم الاقتصادي السريع . حتى اصبحت تلك الدولة ، بفضل الحكم الفرنساوي ، ارض اختبار تستفيد منه بلدان الشرق الادنى عامة ، ولبناننا خاصّة . أوَليس من الغريب ان يأتي الاجانب من البلاد القاصية فيزوروا آثار العلويين بيننا نحن ، على مقربة من تلك الآثار ، نقلّد بعض سكان القاهرة الذين يحيون ويموتون ولا يرون الاهرام الّا من سطوح دورهم !

ان عدم المبالاة بما حولنا من الآثار قد كان له ما يجيزه قبل الحرب . اذ لم يكن من السهل ان يسافر الانسان في بلاد العلويين ، وقد تركها الحكم التركي في مؤخرة مقاطعات سورية مدنيّةً وعمرانًا ، حتى كان الجائل فيها يرى انها لم تتقدم قيد شبر عمّا كانت عليه في القرون الوسطى ، ويلمس من ثمّ ما كان يُفسد حكم الاتراك من المبادئ المقرّرة لدى الباب العالي وهي ان الشعوب الجاهلة اسلس قيادًا ، واسرع خضوعاً لحاكميهم . هذا فضلًا عن رغبة حكام الامس في تذليل العلويين وعقابهم على انهم لم يتحنّوا للنظام التركي . فلم

يكن من طرق في بلادهم سوى بعض المجازات ، اذا استثنينا طريق المركبات الواصلة بين طرطوس واللاذقية ، على شاطئ البحر . اما الامن فكان أبعد من ان يبلغ المبتغى . ولهذا فلم يكن يجسر على المجازفة بدخول تلك البلاد الا بعض اصحاب الجرأة من علماء الآثار القديمة ، على الرغم مما كان يبذله الاهلون من حسن الضيافة التي تحققناها مرارًا اثناء رحلاتنا من ١٨٩٩ الى ١٩٠٤

اما في ايامنا فقد انقلبت تماماً هيئة تلك البلاد . اصبحت الطرقات تخطط نواحيها فتجري عليها السيارات اي ساعة شئت ، وفي اي فصل من السنة اردت . وعلى الكثير من الطرق المعالم الدالة على الجهة والبعد . اما اشهرها فطريق اللاذقية - حلب وهي تجتاز النهر الكبير على جسر من البتون المقوّى يشتمل على قنطرتين سعة كل منها اربعون مترًا . وغدت الكهرباء تنير عاصمة البلاد ، مدينة اللاذقية ، وغيرها من المدن المهمة كجبلة وصافيتا . وكذلك توزّعت مراكز البريد والبرق وشعبها في جميع اطراف الدولة . وأنشئ للتلفون ايضاً مراكز في المحال المهمة . وقد لا يكون في شرقنا بلدٌ اسرع فيه التقدم بإسراعه في بلاد العلويين . فان جميع الذين زاروا مؤخرًا هذه الدولة الفتية ، رجعوا مأخوذين بتلك الخطوة في سبيل النجاح التي خطتها في بضع سنوات . وان النتائج الحسنة الحاصلة في زراعة القطن التي بلغت قيمتها خمسة اضعاف في مدة سنة ، واتساع دائرة الاعتماد الزراعي ، واعمال الري التي يخصص لها كل فائضات الموازنة ، وتوسيع مرفأ اللاذقية ، وسائر مشاريع تنظيم المقاطعات والتحسين البلدي ، الخ . كل ذلك يبشر بخير مستقبل لتلك الدولة ، ويشهد بفضل الحكومة التي تديرها ، فتخلصها من العقبات المتعددة التي يوفرها في غيرها من البلاد تدخل الاهلين بالسياسة ، وتسير بها في سبيل العمل الجدي المنتج الى محجة الرفاهية والهناء . فيا لسعادة العلويين اذ لا مجلس لهم ولا نوّاب يعرقلون الامور ! ويا لسعادة دولة تخصص نصف موازنتها للشؤون الاقتصادية ، وللاشغال العامة ، اذ ليس عليها ان تعول جيشاً من عتماء الموظفين !

كثيرًا ما سمعنا الذين زاروا اللاذقية قبيل الحرب يقولون انها مدينة قذرة حقيرة . وهكذا رأيناها سنة ١٩٠٤ . اما اليوم فقد اصبح فيها حيّ اوربي

تخترقه وتحيط به الشوارع المنتظمة بين الميناء والمدينة القديمة . وهي مُنارة بالاضواء الكهربائية ، وقد وُزّعت في بيوتها المياه الصالحة للشرب ، وجُعلت لها المجاري على طريقة عصرية ، وفُتحت فيها الشوارع الواسعة تتصل بالبحر ، واعتني بحديقتها العمومية . حتى اصبحت تظهر بمظهر المدينة اللطيفة الجميلة ، فتحسدها على اشياء عديدة عاصمة جمهوريتنا . واننا نتحقق هذا الجمال اذا قابلنا لاذقية اليوم بما كانت عليه قبل خمس وعشرين سنة ، حين زرناها فاذا بها خالية من الحياة والحركة ، واذا بمرفأها الصغير مقفر الّا من بعض القوارب . وقد سرّنا اليوم ان حكومتها تفكر بتوسيع المرفأ وبناء صقالة تبلغ المائتي متر طولًا .

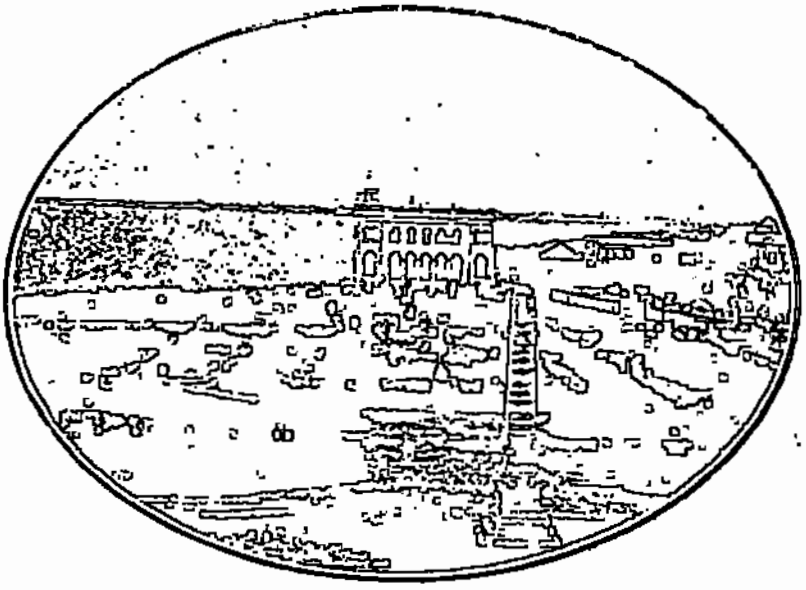

اللاذقية : الحديقة العمومية ، ومركز السياحة

(تصوير جاكر)

لا يخفى ان مستقبل بلاد العلويين يستند الى الزراعة ويزدهر بازدهارها . ولهذا صرفت حكومتها كلّ اهتمامها في هذا السبيل فتقدّمت زراعتها تقدّماً محسوساً . فزاد عدد مغروسات التوت ١٠٠,٠٠٠ نصبة ، ومغروسات الزيتون ٦٠,٠٠٠ في سنة واحدة . ولم يكن يُزرع ، في سنة ١٩٢٠ ، سوى نوع واحد من القطن من الصنف الدون ذي الالياف القصيرة ، ولم تكن تتجاوز

مساحة الارض المزروعة الا ١٠٠ هكتار . اما اليوم فقد استبدل بذاك الصنف انواع جيدة من القطن الاميركي والمصري وزادت مساحة ارضه حتى بلغت ٣٠٠٠ هكتار ، وهو يُزرع خاصة في سهول جبلة واللاذقية . وفي كل من هاتين المدينتين معامل للحلج . ولا تفتأ الحكومة تنشط الزراعة ، فتعفي بعض المزروعات من الضرائب ، وتشتري البذار الصالح فتعين به المزارعين . وتعمل على تحريج الارض الجرداء ، بينما نحن نكتفي بالكلام في الموضوع ، وقد عيّنت ١٧ موظفاً للسهر على اعمال التحريج والمحافظة على الغابات التي مساحتها ٧٠,٠٠٠ هكتار . اما كنوز البلاد المعدنية فاهمها معادن الاسفلت الموجودة قرب طريق اللاذقية - حلب ، على نحو اربعين كيلومتراً من اللاذقية . وقد نالت احدى الشركات حق الامتياز باستخراج هذا المعدن

هذا ومن شاء من قرّائنا الكرام زيادة ايضاح عن دولة العلويين ، عليه بكتاب جميل قيّم خصّه بتلك البلاد حضرة الليوتنان الكولونيل پول جاكو[1] ، قائد عساكر تلك الدولة سابقاً . فجمع فيه عدداً مهماً من المستندات عن هذه البلاد المجهولة ، واخرج منها تاليفاً شيّقاً فيه كل ما يُعرف عنها من حيث الجغرافية ، والتاريخ ، والآثار . واضاف اليه نتائج ملاحظاته واختباراته ، مزيّنة بسلسلة من بيانات الرحلات غاية في الدقة والضبط . فوفّر بذلك اللذة للسائح الغريب ، والفائدة لرجل العمل . وبينما كنا نقرأ هذه الصفحات الملأى بالاعجاب ، كنّا نراجع في فكرتنا منظر المشاهد الخلّابة التي متعنا العين بها منذ ربع قرن يوم لم تكن الارض تعرف اساليب النقل العصرية . اما اليوم فان السيارة تتكفل بايصال المسافر الى جميع ما يهمه منظره من الآثار . وقد شاقتنا تلك الذكريات بواسطة هذا الدليل الامين ، فاستقينا من كتابه اهم موادّ هذا المقال ، وقد تفضّل واتحفنا برسومه الخمسة

ذكرنا ان اهم ما يستجلب الزوّار الى تلك البلاد ، ما فيها من آثار قديمة يجلّلها الزمان بغباره . واطرف ما في تلك الآثار جزيرة رواد العجيبة التي

1) Lieutenant Colonel Paul Jacquot, *l'État des Alaouites, terre d'art, de souvenirs et de mystère; guide touristique. Beyrouth, Imprimerie catholique, 1929, XVII-291.*

جزيرة زواد

منظر مأخوذ من طيارة (Photo. 39° Aviation)

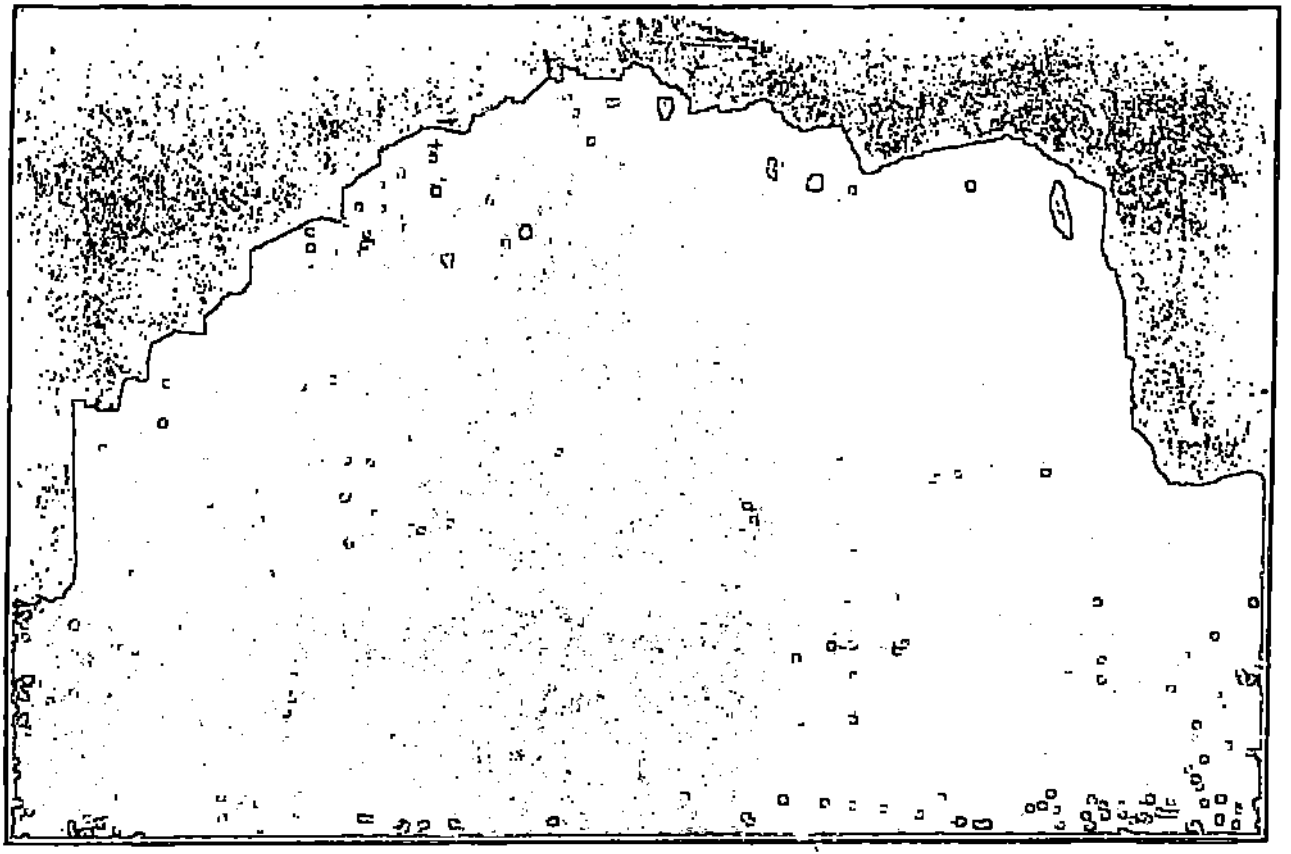

(photo. 39° Aviation.) حسن مصباف

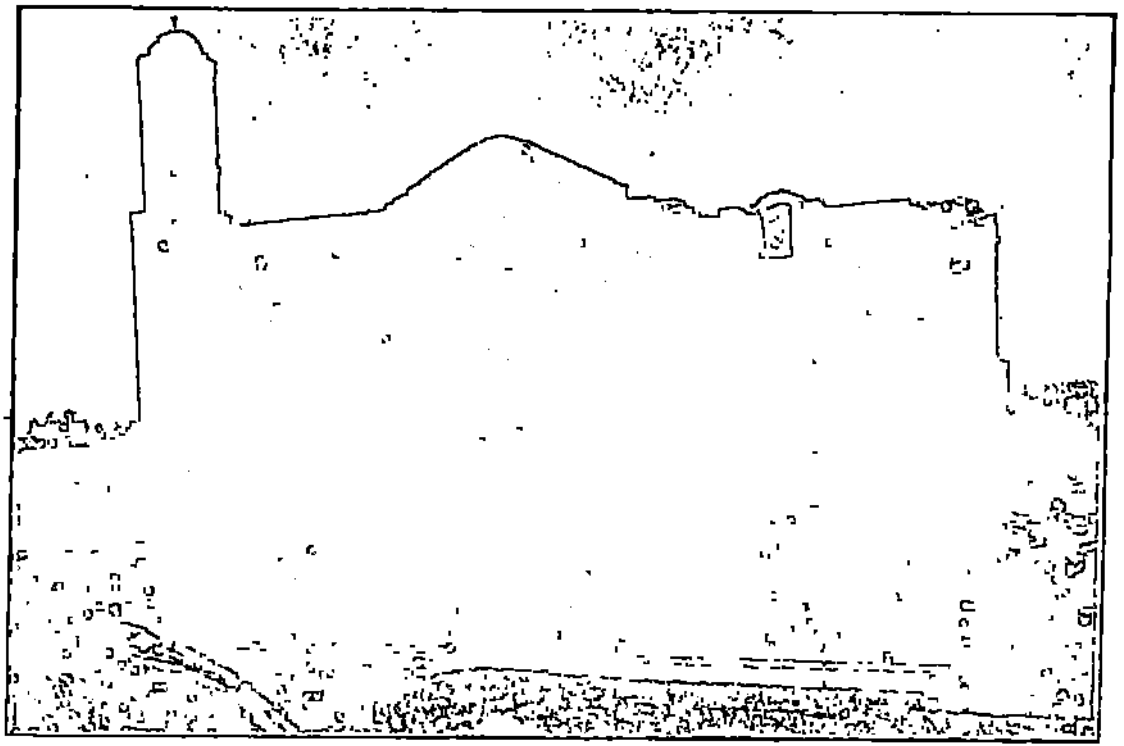

كنيسة طرطوس (القرن الثاني عشر والثالث عشر)

(تصوير هوان : اللاذقية)

يمكننا اعتبارها بجملتها اثرًا عاديًا ، يتغلغل تاريخها في اقدم الازمنة ، ويظهر اسمها في اوليات فصول سفر التكوين (١٠ : ١٨) . وهي اشبه بصخرة كبيرة في البحر منها بجزيرة ، فلا تزيد مساحتها عن ٨٠٠ متر طولًا بـ ٥٠٠ عرضاً ؛ ولا يتجاوز عدد سكانها ٢٧٣٠ وكلهم من المسلمين السنيين . على ان تلك الصخرة ظلّت ، قروناً عديدة ، مركز امبراطورية عريقة في القدم ازدهرت في الالف الثالث قبل المسيح ، فوطّدت سلطانها على جميع فنيقية الشمالية ، وانشأت مدن الشاطئ من طرابلس الى مصبّ العاصي ، وبسطت نفوذها حتى سورية الداخلية ووادي الفرات ، وحاربت اعظم الامبراطوريات القديمة كبابل ، واشور ، وفارس ، فكانت كثيرًا ما تنتصر عليها بفضل مركزها في وسط البحر . فكان تاريخها ، مع تاريخ صور وصيدا ، من امجد تواريخ المدن السورية ، واوفرها حوادث . وفي ايام الحرب ، احتلّها القومندان ترابو ، فجعلها مركز اعاشة للبنان ؛ فحفظ بمساعدة البحارة الفرنسويين حياة الالوف من ابناء الوطن . فخلّد في لبنان ذكرًا يحفّه الشكر وعرفان الجميل .

واذا قطع المسافر المضيق الصغير الذي يفصل جزيرة رواد عن الشاطئ ، يصل الى مدينة طَرْطوس ، وفيها كنيسة تُعدّ من اجمل البيع الصليبية يبلغ طولها ٤٠ مترًا بعرض ٢٧ . وهي مبنية على اسم السيدة . زارها جوانفيل وذكرها في مذكراته التي نشر «المشرق» مؤخرًا شيئاً منها[1] .

وفي داخلية البلاد ، على منتصف الطريق بين صافيتا ومَصْيَاف ، في وسط جبل يكاد يكون مقفرًا ، قام هيكل بايتوسه الذي تسميه العامة « حصن سليمان » .[2] وهو اعظم هيكل في سورية بعد بعلبك . ولو لم تكن أثرت فينا ضخامة هذه الآثار الاخيرة فحرمتنا الاعجاب بكل ما هو دونها ، لكان لحصن سليمان تأثير شديد علينا . وهو يشتمل على حرم مقدّس طوله ١٤٤ مترًا بعرض ٩٠ مترًا . بُني بحجارة يتراوح طول الواحد منها بين الستة والتسعة الامتار بعلوّ ثلاثة امتار . وقد زرناه سنة ١٨٩٩ . وهو ، في الحالة

١) راجع المشرق (٢٧ [١٩٢٩]: ١٦٦ و ٢٦٣) ٢) وقد جئنا فيه احدى مشاهد روايتنا التاريخية « حبيس بحيرة قَدَس » (ص ٢٣ من الطبعة الثانية)

التي يظهر بها اليوم ، لا يرقى الى ابعد من القرن الاول بعد المسيح ، لكنه بُني على آثار هيكل قديم جداً كان يحجّ اليه اهل رواد فيعبدون فيه احد آلهة الجبل .

ولا يتصوّرنّ القارئ الكريم ان ليس في بلاد العلويين سوى العاديات الوثنية القديمة ، فان هناك ايضاً مجموعة بديعة من الحصون المبنية في القرون الوسطى ، كحصون صافيتا ، والمرقب ، وصهيون [1] ، وقدموس ، ومصياف . على ان اشهرها هو ، دون شك ، حصن الاكراد الذي دُعي بحق حلية الهندسة الحربية في القرون الوسطى . وهو على نحو عشرين كيلومتراً من تل كلخ ، يُشرف على طريق طرابلس - حمص في وادي النهر الكبير الفاصل بين دولة العلويين والجمهورية اللبنانية . كانت تلك الطريق في العصور القديمة مجازاً لجيوش الغزاة ، فلزمها ان تراقب ، ولزم تلك النقطة ان تحصّن دائماً . اما الحصن المذكور بهيئته الحاضرة فيرقى الى عهد الصليبيين . وقد كان اوفر حظاً من سائر حصونهم ، فقوي على عمل الدهر حتى اصبح اليوم اظهر جدّة من جميعها ، كما انه اشهرها بتعدد طرق الدفاع التي جُمعت فيه ، وبانتخاب موادّ بنائه ، وبطرق هندسته وتزيينه . وقد نشر «مشرق» هذه السنة (ص ١٧٢) صورة اجمالية له مأخوذة من الطيّارة

كان هذا الحصن ، قبل سنة ١٨٦٠ ، لا يزال محفوظاً كما تركته آخر شرذمة من فرسان الصليبيين في ٨ نيسان ١٢٧١ ، وكما يظهر تقريباً في الرسم التركيبي الذي ننشره في الصفحة المقابلة . ولكن لم تمضِ سنة ١٨٦٠ حتى اخذ الاهالي يسكنون فيه ، فأنشأوا ضمن اسواره قرية صغيرة كانت تتسع شيئاً فشيئاً فتعمر بيوتها بتخريب بناء الحصن . على ان الحكومة اهتمت بالامر ونشرت بياناً يعتبر الحصن اثراً تاريخياً ، واخذت من ثمّ تبحث عن طريقة تخلّصه من تلك البنايات المتأخرة . فابتدأت اعمال الاصلاح في السنة الفائتة ، ورُفع الكثير من التراب المتراكم فظهرت تحته اقبية فسيحة ، طول اكبرها ١٢٠ متراً بعرض ٨ امتار ، وعلوّ ١٠ ؛ وقد اخرج منه نحو ٥٠٠٫٠٠٠ متر مكعب من السماد . وعندما تنتهي اعمال التنظيف والاصلاح ، يمكن لبلاد شرقنا ان تفتخر

[1] نُشرت صورته في مشرق هذه السنة ص : ١٧٣

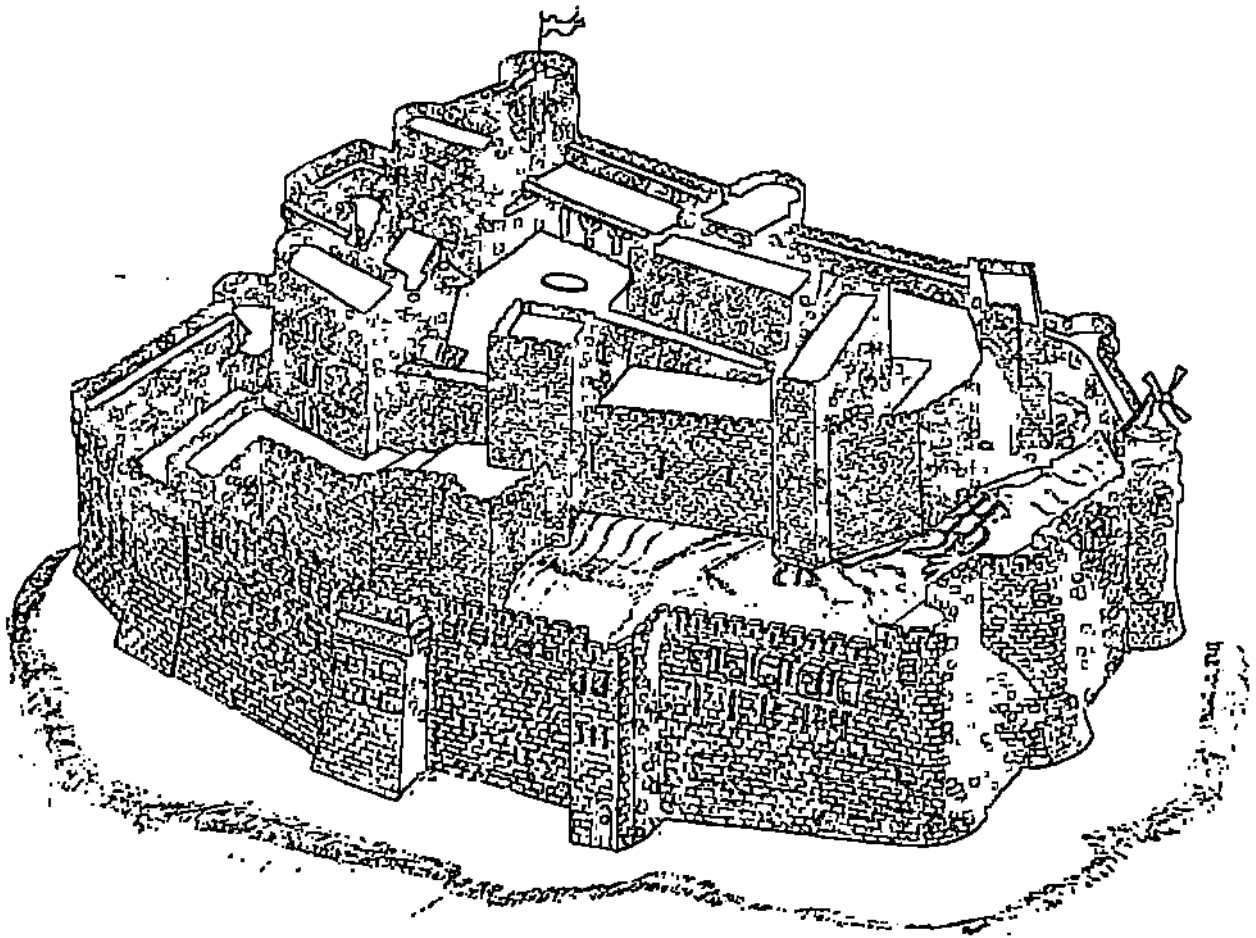

حصن الاكراد كما رسمه ري (Rey) وفيوله اودوك (Viollet le Duc)

بان لها ، في بعلبك ، اضخم هيكل وثني ؛ وفي حصن الأكراد ، اجمل مثال للقلاع القديمة . وفي عهد السلطان صلاح الدين الايوبي ، زار الرحالة ابن جبير مدينة حمص ، فرآها في اقصى درجات الانحطاط ، فقال مبيناً سبب ذلك (ص: ٢٥٨) : « وما ظنك ببلد حصنُ الأكراد منه على اميال يسيرة ، وهو معقل العدو ، وهو منه تتراءى ناره ، ويُحرق اذا يطير شراره . » وهذا يدلنا على مبلغ التأثير الذي كانت تلقيه في القلوب معاقل الصليبيين ، فنفهم كيف امكن اولئك الفرسان ان يقيموا في سورية نحو القرنين على الرغم من قلة عددهم .

وهناك مركز احصن من مركز حصن الأكراد ، واشد تأثيراً في العدو ، وهو مركز قلعة المرقب بالقرب من بانياس[1] . ولكنه لسوء الحظ ادركته يد الخراب فعملت فيه عملها . ولا يمكننا وصفه اليوم الّا بالتذكير بانه كان يجمع ضمن اسواره ٢٠٠٠ عائلة و ١٠٠٠ فرس . وهناك طافيتا وبرجها الشاهق الذي يرقب الناحية كلها من علوّ ٢٨ متراً ، فيهتدي به المسافرون . اما قدموس ومصياف فهما قلعتان من بناء الاسماعيليين . ولم يكن باقياً من الاولى الا آساسها لما زرناها سنة ١٩٠٤ . اما الثانية فكانت مركز سيد «الحشاشين» — وهو الاسم الذي كان يدعو به الصليبيون رجال الاسماعيليين — وهي جميلة المركز اوفر جدة من قدموس ، ولكنها تظهر ضئيلة اذا قابلناها بالقلاع الفخمة التي كسرها الصليبيون في جبل العلويين

هذا وليس بالامكان تعداد تلك الكنوز الاثرية فنكتفي بما تقدم بحيلين القرّاء ، مرة اخيرة ، على كتاب الليوتنان كولونيل جاكو النفيس : فيرون فيه ، فضلاً عن الوصف الدقيق ، صوراً عديدة غاية في الابداع ، ورسوماً وخرائط جغرافية واضحة ، مما يجعل للكتاب قيمة فنية ثمينة ، فيكسب شكر المطالعين للمؤلف على حسن ذوقه ، وللمطبعة الكاثوليكية على مزيد عنايتها . ونحن نشترك مع المطالعين بهذه العواطف ، متمنين ان يقوم في لبنان من يقتدي بهذا المثال الفائق !

١) يلزم التمييز بين بانياس هذه ، وبانياس الكائنة عند ينابيع الاردن ، في اسفل جبل حرمون .